أنَّها صورةٌ عن تاريخ قديم للعالم.

ولتقديم فكرةٍ ملموسة عن نشوء واضمحلال اقتصاديّات-عالم، فيمكننا تتبُّعها منذُ نشوء أوَّل نوع منها في البندقيّة عام ١٣٨٠، إلى أنْ تمَّ إزاحتها عام ١٥٠٠ لصالح مدينة أنـــڤر، وهكذا تتعدَّد المراكز إلى أنْ يستقرَّ اقتصاد أوروبّا في لندن بين ١٧٨٠ و١٨١٥، ثمَّ يغادرها عام ١٩٢٩ ليمكثَ بنيويورك.

أما آسيا فقد عرفت أيضاً اقتصاديّات-عوالم منظَّمةٌ بشكل كامل، لكنْ يمكن القول إنَّ علاقاتها مع اقتصاديّات أوروبّا كانت سطحيّةً، فهي "بدون شكٍّ، تتعلَّق ببعض السلع الفاخرة-بهارات، توابل، وحرير".

ولكنْ، كيف اندثرتْ تلك المراكزُ التي احتلَّتْ، يوماً ما، موقعاً لافتاً؟ يجيب بروديل: "الأزمات الاقتصاديّة الحادّة. إنَّه الجوُّ الاقتصاديُّ السيِّئُ الذي يُسقط المركز القديم، المهدَّد أساساً... [حيث] يجتاز الأقوياء وينهار فيها الضعفاء".

إنَّ هذه التحوُّلات لا تكون إلاّ لأنَّها تحمل تناقضاتها معها، فالرأسمالية "وليدةُ عدم المساواة في العالم؛ إنَّها بحاجة، لكي تنمو وتنتشر، إلى تواطؤ الاقتصاد الدوليّ. إنَّها سليلة المنظَّمة الاستبداديّة ذات المجال المتجاوز الحدِّ بكلِّ تأكيد".

بَقِيَ أنْ نذكر بأنَّ المؤلِّف قدْ شخَّص الأزمة العالميّة الحادّة، وهي بالطبع أزمة الرأسماليّة، لكنَّه يبدو متفائلاً، فإذا ما "سقطتْ نيويورك في الاختبار، وهذا ما لا أتوقَّعه إطلاقاً، على العالم عندها أنْ يجد أوْ يخلق مركزاً جديداً".

قوة الدين في المجال العام
يورغن هابرماس - تشارلس تيلر - جودث بتلر - كورنيل ويست
دار التنوير، ٢٠١٣

مقدمة فلاح رحيم
مترجم الكتاب

يحتوي كتاب **"قوة الدين في المجال العام"** على المحاضرات والنقاشات التي طُرحت في حدث أكاديمي بارز وقع عام ٢٠٠٩ في مدينة نيويورك برعاية ثلاث مؤسسات علمية رصينة تحت عنوان "قوة الدين في المجال العام". وهنالك أكثر من سبب يدعونا إلى ترجمته إلى العربية في هذا الوقت تحديداً، منها أن الموضوع وما أحاط به من حوارات تقارب بعضاً من أخطر الأسئلة التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية في أعقاب إعصار الربيع العربي، ومنها أهمية الأسماء المشاركة في الحدث وما عُرف عنها من رصانة وجرأة

في إعادة طرح مسلمات المجتمعات الغربية طرحاً نقدياً. والكتاب بعد هذا وذاك يفتح سبيلاً جديداً إلى فهم منتج للعلاقة بين العلمانية والدين يتجاوز حالة الجمود والتخندق والانغلاق التي سادت هذه العلاقة خلال عقود طويلة من تبادل الاتهامات والتهديدات في ثقافتنا العربية.

تسود النزاعات بين العلمانية والدين في المشهد العربي مسلمات غربية تأسست منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، أي منذ أن انطلق المشروع الأنثروبولوجي في إنجلترا الفكتورية على يد الأكاديمي الألماني المقيم في بريطانيا أستاذاً في جامعة كمبردج فردريك ماكس مولر Fredrick Max Muller (١٨٢٣-١٩٠٠) حتى سبعينات القرن العشرين عندما بدأت تتزايد محاولات فهم العلمانية على أنها متجذرة في الفكر الديني نفسه. كان مولر صاحب نظرية أثارت لغطاً كبيراً في الأجواء الفكرية المتوترة التي أعقبت نشر داروين لنظريته في النشوء والارتقاء، فقد قارب الدين من منظور العلوم البحتة بدلاً من فهمه بمقولات مستمدة من متونه، واستعار أدواته من حقول مجاورة أبرزها الاشتقاق اللغوي الذي قاده إلى القول إن تطور اللغة هو الأصل في ظهور الأديان والسحر.

أفسح مولر المجال واسعاً أمام منظرين وفلاسفة بارزين للتوغل في طريق الدراسة العلمية البحت لطبيعة الدين ونشوئه. فبلور إدوارد بيرت تيلر .E. B Tylor (١٨٣٢-١٩١٧) نظريته الخاصة عن الدين وطرح في أبرز كتبه "الثقافة البدائية" (١٨٧١) فهمه لمذهب الإحيائية Animism الذي يرى أن الإنسان البدائي اعتقد أن الأرواح حاضرة في جميع الموجودات الطبيعية إما بوصفها مبادئ لأفعالها وإما بوصفها إمكاناً يسكنها. وكان تعريف تيلر للدين واسعاً يتجاوز النسخة التوحيدية من الديانات، فالدين بالنسبة له هو "الإيمان بالكائنات الروحية" لا الإيمان بإله أو آلهة. ثم أثّرتْ نظرية تيلر هذه في مشروع جيمس فريزر J.G.Frazer (١٨٥٤ - ١٩١٤) لاستقصاء التشابه بين الأساطير والأديان في مختلف الحضارات كما عرضه في كتابه المعروف "الغصن الذهبي" (١٨٩٠). وقد خلُص فريزر إلى رسم مسار تطوّري متصاعد يبدأ من السحر البدائي ليمرّ بالدين متجهاً إلى العلم بوصفه ذروة العقلانية والانسجام مع قوانين الطبيعة والحياة.

تواصلت الجهود لتقديم قراءة علمية للدين وكانت تنطلق في الغالب بوصفها جزءاً من مشروع فكري متكامل يدّعي لنفسه الإحاطة بكل مظاهر الوجود الإنساني. قدّم كارل ماركس نظريته في الدين التي ترى أنه مظهر من مظاهر الهرب من مواجهة حقائق الاستغلال الاقتصادي، وبالتالي فهو يهدّد بالضمور قدرة الإنسان النقدية على مواجهة حقائق وجوده الصعبة. وطرح سيغموند فرويد نظريته الخاصة في طبيعة الدين التي اعتمدت على اللاوعي والدراما التي تدور رحاها بينه وبين الأنا والأنا الأعلى. فالدين بالنسبة لفرويد وهمٌ ينجم عن اصطدام غرائز اللاوعي مع اشتراطات المجتمعات الضاغطة على الفرد، ورأي فرويد أن الدين كان في مراحله الأولى قوة تنظيم للغرائز لكنه أصبح

بشكل متزايد عبئاً على المجتمع الحديث وعقبة أمام العلم والتقدم. وطرح ماكس فيبر نظريته الخاصة في طبيعة الدين فرأى أنه نظرة سحرية إلى الواقع تعمل الحداثة والرأسمالية على إزالتها باتجاه نظرة موضوعية للوقائع. وجاءت نظرية أميل دوركايم لتبحث في حاجة المجتعات إلى الدين من أجل رصّ اللحمة الاجتماعية وزيادة التنظيم.

قد تختلف النظريات التي أتينا على ذكرها في طبيعة فهمها لأصول الدين وطبيعته، لكنها تتفق جميعاً على أنه يزداد بمرور الزمن ضموراً وهامشية. وقد أسس إدوارد تيلر لمفهوم البقايا Survivals الذي يشير به إلى العادات والأفكار التي تتناقلها المجتمعات بقوة العادة إلى مراحل أرقى في تطورها تصبح معها هذه البقايا ضرباً من مُفارقة لا تنسجم مع منطق التطور. وكان الدين بحسب رأيه واحداً من هذه البقايا التي سيطرحها العلم جانباً لا محالة. وهي نظرة يشترك فيها كافة المنظرين المذكورين. كان كارل ماركس يرى أن نقد المقدس هو منطلق كلّ نقد، وكان فرويد يرى في الدين وهماً يشبه العصاب النفسي لا علاج له إلا بمقاربة الوقائع دون أوهام، وكان ماكس فيبر يرى في بيرواقراطية الدولة الحديثة واعتمادها المنطق العلمي أملاً في الحدّ من سلطات الدين التي لا تعتمد العقلانية، وكان دوركهايم يسعى إلى لحمة اجتماعية عقلانية بالرغم من قناعته أن للدين قدرة فذة في تحقيق هذه اللحمة. وقد تعززت هذه الافتراضات في النظرة العلمانية إلى الدين في المجتمعات الغربية وصارت من المسلمات في منتصف القرن العشرين.

ربما كان من مزايا الميراث العلماني الغربي أنه شحذ الحاسة النقدية لدى المفكرين الغربيين وجعل من الصعب ممارسة التخندق الأيديولوجي والجمود في مقاربة الوقائع. وكتابنا هذا ينطلق من حقيقة واقعة فرضت نفسها على المفكرين الغربيين بكلّ مشاربهم تتناقض مع الميراث الذي أتينا على ذكره، ألا وهي قدرة الدين على البقاء وفاعليته في اجتذاب أعداد متزايدة من الناس في كلّ المجتمعات البشرية المتطورة والنامية، الاستعمارية والتابعة. وهي حقيقة تسببت في صدمة صحا بعدها الفكر العلماني من ركود العد التنازلي بانتظار زوال الدين. يستأنف هذا الكتاب حكاية العلاقة بين العلمانية والدين كما بدت منذ سبعينات القرن العشرين حتى أواخر القرن، وهي الحقبة التي شهدت صعوداً مفاجئاً للدين لم يتوقعه أيٌّ من مفكري العلمانية الكبار. أما مظاهر هذا الصعود فتتمثل في تزايد عدد المستغيثين بالدين لا تناقصهم، وفي ضغط متزايد يمارسه الدين بأشكال مختلفة سعياً للعودة إلى المشهد السياسي، وفي قدرة الخطاب الديني الفائقة على مخاطبة هواجس الهوية والشقاء والمعنى لدى الإنسان المعاصر. قد تختلف الآراء في طبيعة هذه الظاهرة وعللها، وقد يجدها بعضُهم كبوةً تاريخية وقعت فيها البشرية نتيجة إخفاقات مشروعها التنويري سرعان ما ستقوم منها وتستأنف مسيرة التقدم. ولكن مهما كان تفسيرنا لهذه الظاهرة المفاجئة، فإن التصدي لها وقبول حضورها الواسع هما خطوة لازمة للتعامل معها تعاملاً فاعلاً. وهو ما يفعله المشاركون في هذا الكتاب من داخل ميراث العلمانية الغربية.

تراكمت الكثير من البحوث الأصيلة في طبيعة هذا الانبعاث الديني حتى بدأ يتبلور حقل جديد يمكن تسميته دراسات مابعد العلمانية. وبينما تبقى الثقافة العربية أسيرة ثنائية الصراع بين العلمانية والدين التي أسس لها التنوير الغربي ونقلها عبر الحقبة الكولونيالية إلى المناطق المستعمرة حول العالم، فإن الفكر الغربي نفسه، وأبرز الجامعات الغربية بدأت تعكف بتعمق على دراسة الحيوية الفائقة للخطاب الديني في عالم العقود الخمسة الأخيرة وقدرته على اجتذاب قطاعات واسعة من الجماهير في كلّ مكان. ترى الباحثة الباكستانية صبا محمود (وهي استاذة الأنثروبولوجيا في جامعة كاليفورنيا/ بيركلي) أن العلمانية سادت العالم الإسلامي في حقبة ما بعد الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الثانية متخذة أشكالاً متنوعة قومية ويسارية وليبرالية (سوكارنو أندونيسيا، وعبد الناصر مصر، وشاه إيران)، لكن الثمانينات شهدت انعطافة غير متوقعة نحو الإسلام رفضت ربط الحداثة بالمنظور الغربي حصراً. وهي انعطافة ارتبطت بإخفاق الأنظمة الديكتاتورية ما بعد الكولونيالية من جهة، وإخفاق المشروع التنويري الغربي في تحقيق وعوده الكبيرة من جهة أخرى. على وفق هذا المنظور تصبح غلبة الطابع الديني على الحراك السياسي الذي أعقب الربيع العربي أمراً متوقعاً ومفهوماً.

يثير المشاركون في هذا الكتاب الكثير من الأسئلة التي تواجه المثقف العربي. وبالرغم من الخلافات الكثيرة بينهم في تحليل الظواهر وفهمها، فإنهم يتفقون جميعاً على ضرورة الحفاظ على المشروع العلماني الغربي بمؤسساته الديمقراطية التي أنضجتها قرون طويلة من الحراك السياسي الخصب. وأبرز الأسئلة المطروحة على طاولة البحث يتعلق بإمكانية فسح المجال أمام الدين ليشارك في صياغة القرارات والسياسات، تاركاً عزلتَه الرسمية الطويلة عن السياسة التي نجمت عن خصخصته ودفعه إلى عالم الفرد.

يرى يورغن هابرماس في مداخلته أن لابد من الإقرار بأهمية الدين في إغناء النقاشات الدائرة في المجال العام، لكنه يصرّ على ضرورة أن يترجم المساهمون في هذه النقاشات آراءهم إلى لغة مقبولة لدى جميع الفرقاء تحتكم إلى العقل. إذ لا يمكن لأحدٍ فرض رأيه بالاستناد إلى عمق إيمانه بهذا الرأي، بل يتحقق قبول الرأي بقوة الجدال العقلاني الذي يعتمد المنطق والاقناع. وينطلق هابرماس من مناقشة فلسفية معمقة للمنظر الألماني كارل شمت (١٨٨٨-١٩٨٥) الذي ظلّت أعمالُه النظرية في مفهوم الدولة السيادية الحديثة تثير الكثير من الجدال حتى يومنا هذا، على الرغم من ميوله النازية المعروفة. وهابرماس مشغول بمفهوم "السياسي" كما طرحه شمت في بحث مطوّل بعنوان "مفهوم السياسي"، ميّز فيه بين السياسة كوقائع والسياسي بوصفه جوهر السياسة والأساس الوجودي الذي يقرر سيادة الدولة الحديثة وهويتها. وهو ما يعني أن شمت قد ميّز بين الفهم الإداري والتشريعي للسياسي وبين الإجراءات السياسية للدولة التي تبيح لها ممارسة سيادتها عبر تحديد الأعداء والأصدقاء والإقدام على اتخاذ اجراءات استثنائية كإعلان الحرب. وبهذا يرى

شمت أن للسياسي خصوصية تعلي من شأنه بالمقارنة مع الاقتصادي والجمالي والاخلاقي. وهابرماس يعترض على هذا الفهم الوجودي الذي يتجاوز العقل والحجاج المنطقي للسياسي ويرى في تفنيده تفنيداً لمحاولة إعادة الدين إلى المجال العام والحياة السياسية بوصفه مداخلة غيبية لا تحتكم إلا إلى الكتب المقدسة.

يذهب الفيلسوف الكندي المعروف تشارلس تيلر إلى ضرورة إعادة الدين إلى المجال العام مع كامل الاحترام لخصوصياته، وذلك لأن الحاجة إليه تكمن فيما له من خصوصية تميّزه عن غيره من المواقع الفكرية والايديولوجية. وهو لذلك يرفض النظر إلى الدين بوصفه حالة خاصة لابد من التعامل معها بحذر واحتراس كما يرى هابرماس. الدين بالنسبة لتيلر موقف آخر يجاور ما عداه من المواقف الأيديولوجية الأخرى المسموح بها في عُرف الدولة العلمانية، وذلك لأن في كلّ أيديولوجيا عنصراً يتجاوز العقل والمعقولية من قبيل المصالح التي تحرّكها والقوّة التي تدعمها. بهذا لا يرى تيلر أن حوار الفيلسوف واللاهوتي أمرٌ متعذرٌ ولا فرق نوعياً بينهما. وبينما يؤكد هابرماس أن الدين لا يخضع خضوعاً تاماً للجدال العقلي فإن تيلر، ومن بعده كالهون في كلمته الختامية، يريان أن هذا الموقف يعد من الأساطير التي روّجت لها العلمانية وأن التاريخ يقدم أمثلة تثبت العكس.

تثير مداخلة الفيلسوفة النسوية المعروفة جوديث بتلر قضية ذات طابع سياسي لكنها تصّب على نحو عميق في موضوع البحث. فهي تقارن بين موقف الصهيونية بوصفها عقيدة سياسية علمانية وموقف الديانة اليهودية بوصفها عقيدة غيبية من مفهوم التعايش، فتجد أن الميراث الديني اليهودي يوفر أفقاً أوسع للتعايش والتفاهم مع الآخر يفوق ما توفره الصهيونية المتمثلة في دولة تمارس شتى أنواع التعسف تجاه الشعب الفلسطيني الأعزل. لكن مساهمة بتلر تذهب أبعد من ذلك فتثير الأبعاد الفلسفية للتعايش بين الجماعات المختلفة عرقياً وقومياً ودينياً وطائفيا وحتى سياسياً، وتنبهنا إلى حقيقة أن قبول الآخر صار شرطاً للوجود الآمن العقلاني في عالم اليوم الذي تتساقط فيه الحدود الوطنية ويتحرك فيه البشر إلى مختلف البقاع حاملين معهم هوياتهم المختلفة حيثما ذهبوا.

تمتاز مداخلة المفكر والناشط الأمريكي الأسود كورنيل ويست بنبرتها الشعرية المتديّنة، ولكنْ المتعالية على المنطق الإقصائي بكلّ أنواعه. وهو يبلور في كلمته فكرة تُعد محورية في كلّ وقائع هذه الندوة مفادها أن الأولوية لابد أن تُعطى لتحقيق مطامح البشر في حياة كريمة تضمن للإنسان حاجاته الأساسية، أما وسائل تحقيق هذه الغاية فلا بد من السعي إليها في كل أنواع الخطاب من علماني وديني دون انغلاق وتعنت. وهو ما يذكرنا بأن القطيعة التي نشهدها في حواراتنا العربية بين العلمانيين والمتدينين لا تنطوي على حرص على فاعلية الأفكار في تغيير الواقع بقدر حرصها على مواقع فكرية نخبوية معزولة عن الممارسة.

يختم الكتاب البروفيسور كالهون بكلمة مطوّلة توفر منظورين مهمّين للقارئ. الأول مسحٌ تاريخي للحياة

السياسية الأمريكية يثبت بالأمثلة التاريخية أن الدين ساهم في الكثير من الحركات الشعبية التقدمية التي ساد الاعتقاد أنها من صنع العلمانيين فقط، والثاني عرض ختامي لآراء المساهمين في الندوة يستخلص منها أبرز أفكارها وما تنطوي عليه في محاولة لإعادة النظر في علاقة الدين بالدولة العلمانية والمجال العام.

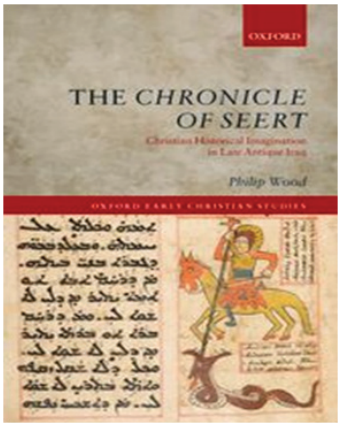

تاريخ سعرد
المخيال التاريخي المسيحي في العراق أواخر العصور القديمة
للدكتور فليب وود

قراءة نصير الكعبي

صدر للزميل الدكتور فليب وود عن جامعة أكسفورد ضمن سلسلة دراساتها المختصة بتاريخ المسيحية المبكرة كتاب "**تاريخ سعرد: المخيال التاريخي المسيحي في العراق أواخر العصور القديمة**" The Chronicle of Seert: Christian Historical Imagination in Late Antique Iraq. والكتاب الصادر باللغة الإنكليزية ٢٠١٣ هو عبارة عن مشروع دراسة مابعد الدكتوراه قضى معه مؤلفه أكثر من عامين لإنجازه فتكون من ٣٢٠ صفحة بقياس سم ٦ ,٢٣ x ٤ ,١٦ x ٢ .

والدراسة في فكرتها العامة تميل إلى استخراج أو استيعاب تاريخ العراق والمسيحية في العصر الساساني والإسلام المبكر، وقد استعمل المؤلف اصطلاح (Late